دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: عمارة المدن في الإسلام
المصدر: الوعي الإسلامي
الناشر: وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية
المؤلف الرئيسي: الفقي، محمد عبدالقادر
المجلد/العدد: س26, ع306
محكمة: لا
التاريخ الميلادي: 1990
الشهر: يناير - جمادى الأولى
الصفحات: 76 - 87
رقم MD: 440838
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: IslamicInfo
مواضيع: العمارة الإسلامية ، المدن ، العقيدة الإسلامية ، التخطيط العمراني
رابط: http://search.mandumah.com/Record/440838

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

عمارة المدن في الإسلام

للمهندس / محمد عبدالقادر الفقي

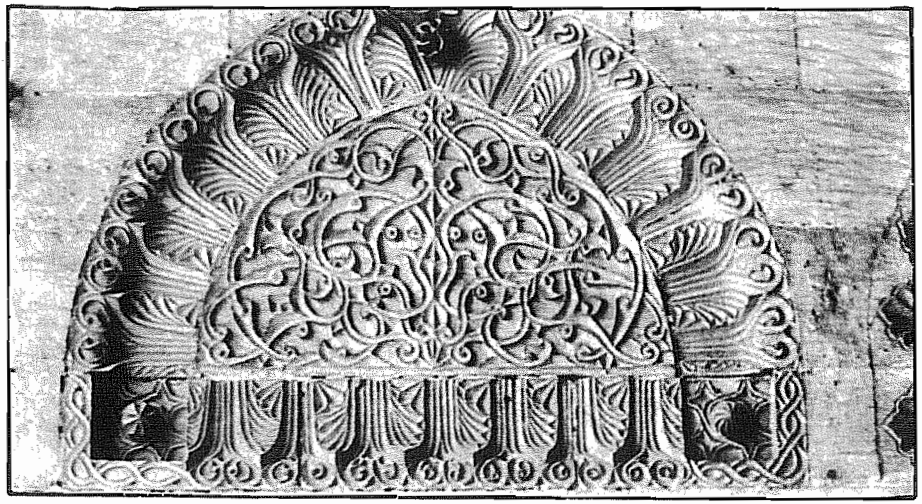

● زخرفة إسلامية لإحدى الدور

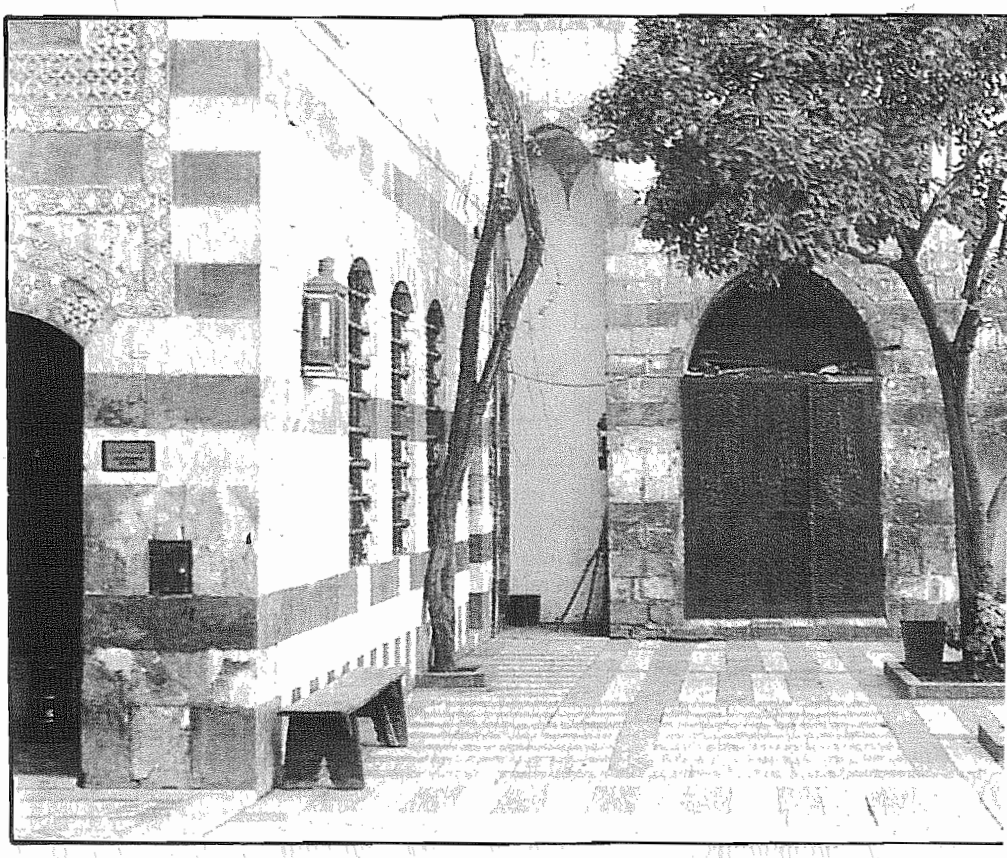

● فناء بيت عربي في مدينة إسلامية يحقق الخصوصية والأمن والصحة

تركت العقيدة الاسلامية السمحة آثارا إيجابية في الأذواق المعمارية للمهندسين المسلمين الذين اختطوا المدن ، وشيدوا الأمصار . فلم تكن المدينة الاسلامية ـ في يوم من الأيام ـ مستقرا لنخبة من الأثرياء ينعمون فيها بالراحة على حساب الفقراء والضعفاء ، ولكنها كانت تجمعا حضاريا ، يضم الأبيض والأسود ، والغني والفقير ، والعالم وغير المتعلم .

وفي جو المدن الاسلامية المتسامح هذا، ظهرت الحضارة التي ملأت العالم نوراً وعلماً، وخيراً وفكراً .

ولقد شجعت العقيدة الإسلامية على إقامة المدن والتجمعات الحضرية في كل الأقطار . ولم تكن المدن الاسلامية مجرد ظاهرة جغرافية أو تاريخية فحسب ، بل كانت ـ أولا وقبل كل شيء ـ ظاهرة دينية اتسمت بتعمير وتنظيم مكاني ، وامتزجت فيها القوانين المادية بالقيم الروحية الاسلامية .

ولقد «سبق المسلمون في فن العمارة وتخطيط المدن ونظافتها غيرهم من الأمم . ففي الوقت الذي كانت فيه الدنيا تعيش حالة من الفوضى والاضطراب في كل مجالات الحياة ، كانت المدن الإسلامية تشيد على أساس من الذوق الأخلاقي الذي جسد المدينة الاسلامية كأروع مدينة عرفتها المدنية في القديم والحديث . وكانت المدينة الاسلامية تختلف حضاريا عن كل مقومات وتصورات المدينة في العالم غير الاسلامي ، حيث إن المدن الاسلامية ظلت مراكز للتربية الروحية والتخطيط المستمر . فكانت وحدة هندسة البناء تعطي لكل ساكن فيها حرمته وكرامته ، دون تفرقة بين أحياء الأغنياء وأحياء الفقراء . وكانت النظافة هي السمة البارزة في تلك المدن» . لقد وصف أحد المستشرقين بلاد الأندلس الاسلامية وقارن بينها وبين مدن أوروبا في تلك الفترة فقال :

«كانت شوارع المدن الاسلامية ، وفي الأندلس على وجه الخصوص ، واسعة ونظيفة ، في الوقت الذي كانت فيه شوارع أوروبا غارقة في الوحل . وكانت أسقف المنازل مزينة بالنقوش الجميلة ، في الوقت الذي كانت فيه أسقف المنازل في أوروبا ملطخة بسواد المداخن ، وكان الأطفال في الأندلس وغيرها من مدن الإسلام يقرأون ويكتبون ، وكان أمراء أوروبا يعلقون الأختام في أعناقهم» .

ولقد كان من أهم نتائج الفتوحات الاسلامية بناء مجموعة من المدن الاسلامية الجديدة في البلاد المفتوحة كالبصرة والكوفة وبغداد في العراق ، والفسطاط والقاهرة في مصر ، وتونس والقيروان في تونس ، وفاس والرباط ومراكش في المغرب . وقد ساعدت هذه المدن الجديدة وغيرها من المدن التي سكنها العرب ـ مثل دمشق وحلب وبيروت وغزة والقدس وغيرها ـ على تعريب العراق والشام ومصر وشمال افريقية ، فأصبحت اللغة العربية هي لغة السكان ، كما أصبح الاسلام دين الغالبية العظمى منهم . وكانت تلك المدن مع غيرها ، مثل سمرقند وبخاري وطشقند وشيراز ونيسابور والموصل واستنبول والجزائر وأشبيلية وقرطبة وغرناطة ، من أهم مراكز الحضارة الاسلامية التي شعت بنورها على العالم كله .

وكانت المساجد هي أول ما يحرص المسلمون على بنائه في المدن ، سواء مافتحوه منها ، أو ماشيدوه لأول مرة . وكانوا يتأسون في ذلك بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقد كان أول ماقام به ـ صلوات الله وتسليماته عليه ـ بعد

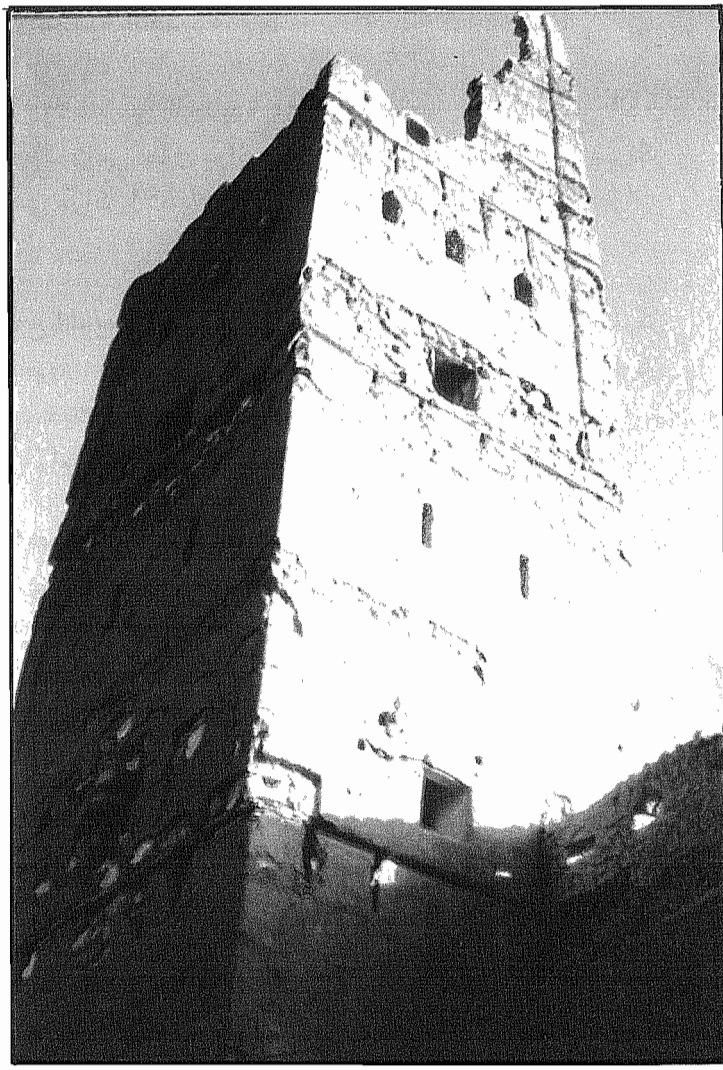

● أحد أبراج الحراسة في مدينة عمانية

هجرته إلى يثرب بناء المسجد . «فحين وصل الرسول إلى قباء قام بتأسيس مسجد قباء بينما لم يكن قد مكث فيها إلا أربعة أيام» ، ثم قام ببناء مسجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المدينة .

وقد اهتم المسلمون بإحاطة المدن بأسوار ضخمة لحمايتها من هجمات الأعداء ، خاصة مدن الثغور . وقد جعلوا في أسوارها أبوابا لتنظيم حركة الدخول والخروج ، وأبراجا لأغراض الحماية والوقاية .

تصميم المدن الاسلامية الجديدة :

صممت المدن الاسلامية الجديدة على النهج المعماري الاسلامي الذي يتصف بتنظيمه الحزامي حول نواة رئيسية هي جامع المدينة ، ومراكز أخرى صغيرة هي مراكز الأحياء . ومن أهم مبادىء هذا التنظيم العمراني مايلي :

١ ـ مركزية جامع المدينة: حيث يعتبر الجامع الرئيسي للمدينة هو المركز الذي يتوسط مبانيها . فالجامع في نظر مخططي المدينة الاسلامية هو المركز الأول للمجتمع ، حيث يتعلم فيه السكان أمور دينهم ودنياهم إلى جانب قيامهم فيه بأداء واجباتهم الدينية من فروض وشعائر .

وقد حرص المعماريون الاسلاميون على أن يشكل الجامع جزءا من مجتمع المدينة ، بحيث يلتحم مع بنائه وعمرانه ، فيكون بذلك جزءا من كلٍّ مترابط ولا يكون بناء منفردا أو منعزلا . ومعلوم وجوب صلاة الجمعة وأفضلية صلاة الجماعة في المساجد ، لذلك كانت المساجد تبنى وسط المنشآت السكنية والتجارية ، بحيث يسمع الناس الأذان وبالتالي يلبون نداءه .

وتحيط بالجامع عادة الأسواق النظيفة في صورة حزام دائري ، حتى إذا قضى المسلم صلاته ذهب إلى الأسواق للتجارة أو لشراء متطلباته . ومما يدل على الارتباط العضوي بين المسجد والسوق قوله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)** سورة الجمعة / الآيتان ٩ و١٠ .

وكان مخطط المدينة الاسلامية يحرص دائما على أن تكون الأسواق التي تحيط بالمسجد من الأسواق التي لا ينتج عنها ضرر لجمهور المسلمين . وكانت الأسواق تضم عادة محلات الصاغة والعطارين والأقمشة والكتب وغيرها من المحلات التي لا تنتج عنها مواد ملوثة للبيئة فتؤذي برائحتها وأدخنتها المصلين ، ثم تلي هذه الأسواق مباشرة المساكن ، وفي أطراف المدن كانت تقام أسواق الخضروات والمنتوجات الزراعية وغير ذلك من أسواق المواد التي تنتج عنها مخلفات ونفايات ملوثة .

٢ ـ توجيه المعمار نحو القبلة:

من أهم ما يميز المدينة الاسلامية هو التوجه بالمعمار نحو القبلة ، أي نحو مكة المكرمة ، دون اعتبار واضح لملكية الأرض أو للهياكل العقارية الحضرية .

٣ ـ الوحدة الاجتماعية :

وهي تتمثل في نبذ كل مظهر من مظاهر الغنى والزينة والتفاخر في كل بناءات المدينة . فسمة التواضع والبساطة نجدها ظاهرة للعيان في أي مكان بالمدينة الاسلامية . ويتطابق ذلك مع دعوة القرآن الكريم التي تدعو إلى الابتعاد عن البذخ والتبذير . قال تعالى :

(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) سورة الإسراء/ الآية ٢٧ .

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين) سورة القصص/ الآية ٥٨ .

(أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لكم لعلكم تخلدون) سورة الشعراء/ الآيتان ١٢٨ و ١٢٩ . **(وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين)** سورة الشعراء ١٤٩ ـ ١٥١.

وفي الوقت نفسه ، لم تكن في المدينة الاسلامية أحياء خاصة بالموسرين وأحياء أخرى للمعدمين . ولم تكن مساكن الميسورين في وسط المدينة ومساكن الفقراء في أطرافها كما هي الحال في المدن الغربية والمدن المعاصرة ، بل نجد وحدة معمارية كاملة أوجبها مبدأ الوحدة الاجتماعية المتبع في تخطيط المدينة .

٤ ـ حرمة العائلة :

اتبع في التخطيط العمراني للمدينة الاسلامية أسلوب فريد في تصميم الشوارع والحارات والبيوت ، بحيث يضفي هذا التصميم على المدينة طابعا خاصا من التستر والمحافظة على حرمة العائلة ، وبخاصة حرمة المرأة .

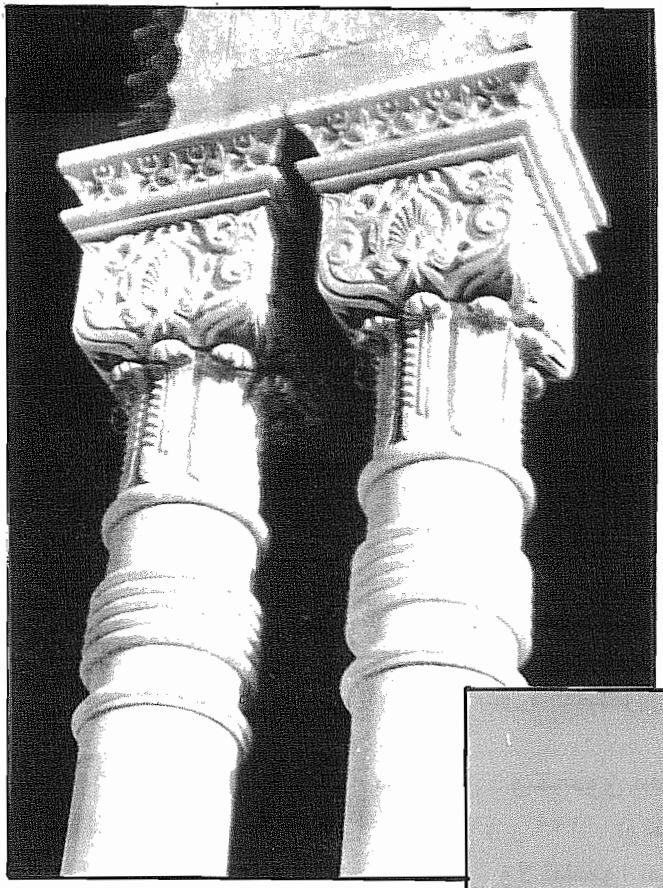

● برع المهندسون المسلمون في بناء المساجد وفي تصميم أعمدتها وتيجانها

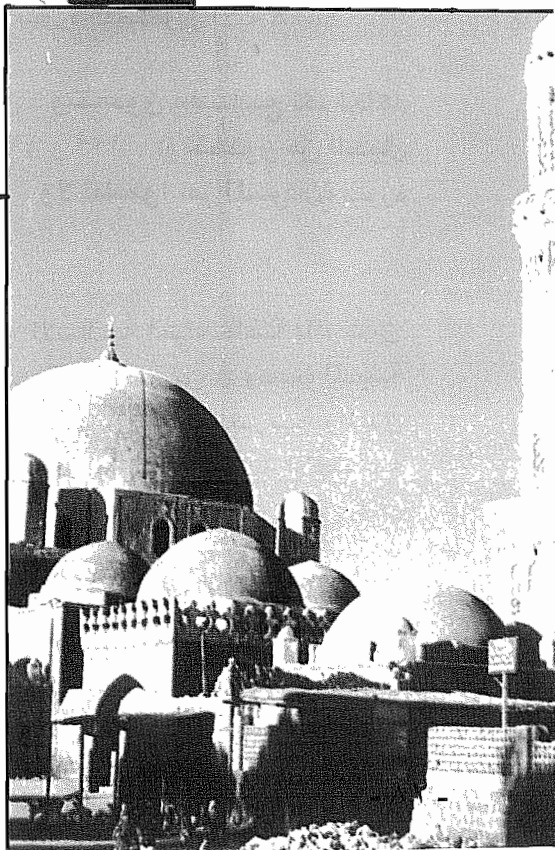

● مسجد في صنعاء

في العمارة امتزجت القوانين المادية بالقيم الروحية

٥ ـ منع الضرر :

بالاضافة إلى المبادىء السابقة ، روعي في تصميم وبناء المدن الاسلامية محاولة منع الضرر عن سكانها ، وذلك بنقل الصناعات التي تندر الحاجة إليها خارج هذه المدن لتفادي ما ينجم عنها من ضوضاء أو روائح كريهة أو دخان ، ولذلك السبب ، نجد أن الصناعات الكبيرة مثل مصانع مواد البناء كانت تقع دائما خارج أسوار المدينة الاسلامية ، كما كان الحال مثلا في

المدينة المنورة ، حيث كانت مصانع مواد البناء والفخار موجودة في الجهة الجنوبية الغربية خارج بوابة قباء ، في حين كانت بعض المصانع الأخرى موجودة خارج بوابة الشامي في الشمال . ويتضمن منع الضرر أيضا

تصميم وبناء البيوت بحيث تحافظ على حرمة ساكنيها وخصوصيتهم . ومن كتب الفقه التي اهتمت بأحكام نفي الضرر الناجم عن المباني كتاب (الإعلان بأحكام البنيان) لابن الرامي المتوفى سنة ٧٣٤هـ .

وقد وضح ابن الرامي أن الضرر «يتأتى من الدخان والرائحة والضوضاء وسوء استعمال الطريق والنظر من الكوى والأبواب . أما الضرر من الدخان فينقسم إلى قسمين :

الأول : دخان التنور والمطابخ ، وهذا لا يمنع لعدم إمكانية الاستغناء عن مسبباته ، وهي عملية الطبخ .

والثاني : دخان الحمامات والأفران ، وهذا يمنع لاحتوائه الضرر بالسكان المجاورين لمصدر الدخان .

ولهذا يجب أن يكون خارج المنطقة السكنية لتفادي إحداث الضرر ، وكذلك الأمر بالنسبة للرائحة ، فيمنع إحداث مدابغ الجلود داخل المناطق السكنية لما تسببه من روائح كريهة . وكذلك الأمر بالنسبة للصوت فلا يجوز ممارسة أعمال داخل الدور تسبب الضوضاء إذ ربما تنتج عنها اهتزازات تؤدي إلى انهيار الدور المجاورة ، بالإضافة إلى ما تحدثه من إزعاج لسكان المنازل المجاورة .

كما يمنع بروز البناء على الطريق النافذ لما يحدثه من اعتداء على حرم الطريق وإعاقة الحركة فيه .

أما ضرر النظر من الكوي والأبواب فيترتب عليه الاعتداء على خصوصية الأسر وانهيار القيم والأخلاق ، فجاء نفي حدوثه أكثر إلحاحا من أي عنصر آخر . ولقد تم ذلك بوسائل معمارية مختلفة . ففي حالة الكوي التي تقع بين الدور عولجت بألا يقل ارتفاع جلستها عن ارتفاع قامة رجل واقف على سرير . أي حوالي ثلاثة أمتار ، وذلك حتى لا يتمكن سكان البيوت من النظر إلى جيرانهم . أما إذا كانت الكوة مطلة على الطريق فيجب ألا يقل ارتفاع جلستها ـ عن منسوب الطريق ـ عن سبعة أشبار ، أي نحو مترين ، الأمر الذي يتعذر معه النظر إلى داخل البيوت وكشف عورات سكانها».

اختيار المواقع الملائمة بيئيا وصحيا لتخطيط المدن :

كان للعوامل البيئية والصحية أثرها في اختيار مواقع المدن الجديدة . فكان المخططون يشترطون نظافة الموقع المقترح لإنشاء أي مدينة وطيب مناخه وخلوه من الحشرات والجراثيم . وتزخر المراجع الاسلامية بأخبار الوقائع التي تدل على حرص المسلمين على اختيار الأماكن الملائمة بيئيا وصحيا لتخطيط المدن .

«فحين أقام المسلمون بالمدائن في بلاد فارس واختطوها وبنوا المساجد فيها ، مالبثوا أن استوخموها واستوبئوها ، فكتب بذلك سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فكتب إليه عمر أن ينزلهم منزلا غربيا ، فارتادوا كوفة ، فنظروا فإذا الماء محيط بها ، فخرجوا حتى أتوا موضع الكوفة اليوم ، فانتهوا إلى الظهر حيث ينبت الخزامي والأقحوان والشيح والقيصوم والشقائق فاختطوا المدينة» . وقد استدلوا من وجود مثل هذه النباتات البرية النامية في الموقع على نظافة الهواء بالموقع ، إضافة إلى إمكانية وجود المياه فيه .

وفي رواية البلاذري أن سعد بن أبي وقاص ارتاد موقعا قرب الأنبار وأراد أن يتخذه منزلا ، فكثر على الناس الذباب ، فتحول إلى موضع آخر فلم يصلح ، فتحول إلى الكوفة .

ولعل مافعله أبو جعفر المنصور حين اختار موقع بغداد لدليل أكيد على دقة المسلمين في تخير مواقع المدن . فقد خرج الخليفة العباسي إلى الموقع وبات فيه ، وكرر نظره فيه فرآه موضعا طيبا موافقا . ولم يكتف بذلك ، بل استقصى الأمر من السكان ، وكيف هو في الحر والبرد والأمطار والوحول والبق والهوام فأخبره كل واحد بما عنده . وزيادة في الاستقصاء ، وجه الخليفة رجالا من قبله ، وأمر كل واحد منهم أن يبيت في قرية من القرى

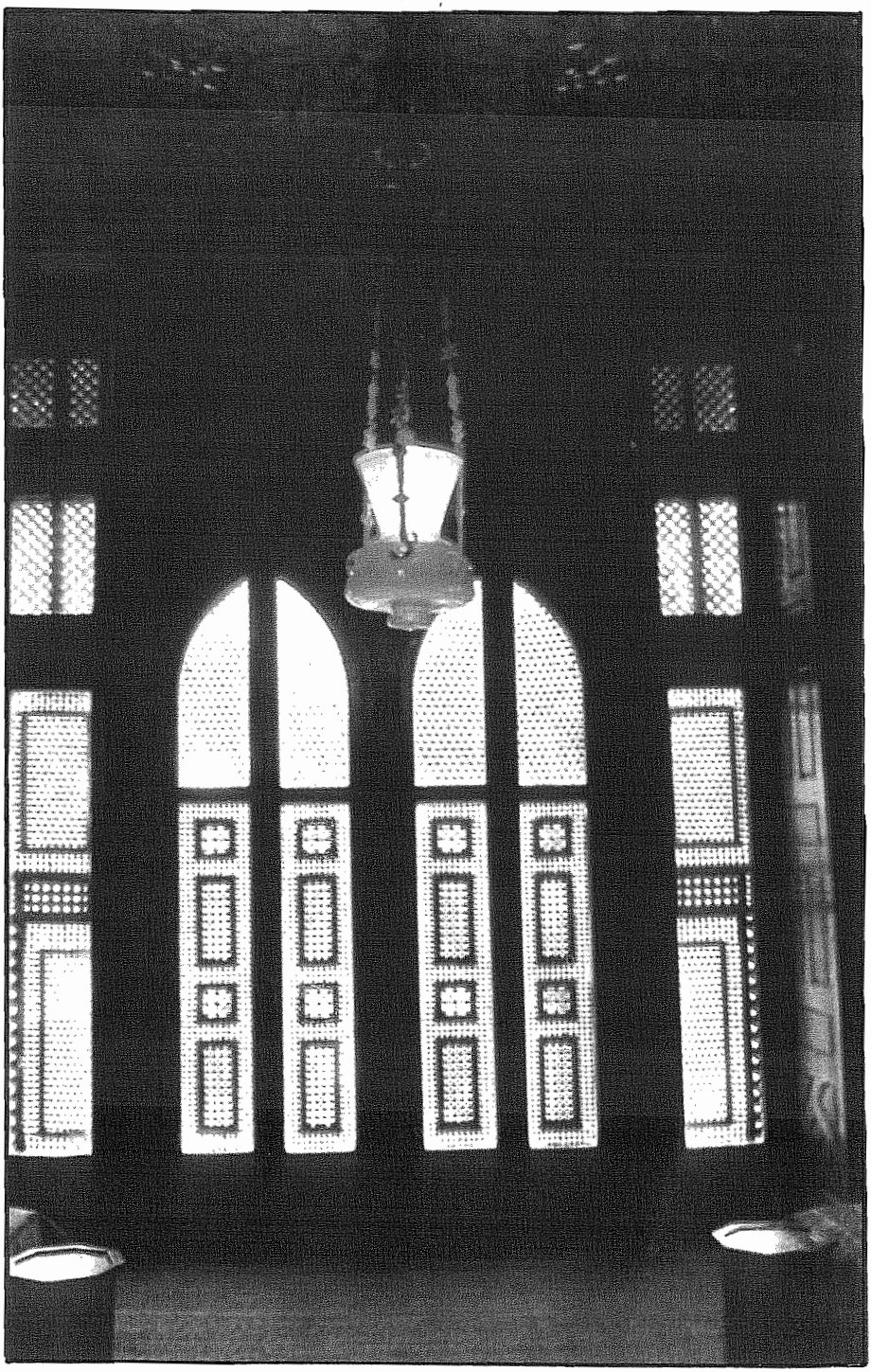

● منظر لبيت إسلامي من الداخل . لاحظ كيف راعى المصمم توفير عنصر الإضاءة بنوعيها الطبيعي والصناعي

المحيطة بالموقع ، فبات كل رجل في قرية منها وأتاه بخبرها .

حقوق الساكنين للمدينة :

يذكر أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ) في كتابه (تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك) عدة شروط تمثل حقوق الساكنين للمدينة ، ويجب على من ينشىء مدينة مراعاتها . يقول الماوردي : (على منشىء المصر في حقوق ساكنيه ثمانية شروط :

الأول : أن يسوق إليه ماء السارية إن بعدت أطرافه ، إما في أنهار جارية أو حياض سابلة ليسهل الوقوف إليه من غير تعسف .

والثاني : تقدير طرقه وشوارعه حتى تتناسب ولا تضيق بأهلها فيستطير المار بها .

والثالث : أن يبني جامعا للصلوات في وسطه ليقرب على جميع أهله ، ويعم شوارعه بمساجده .

والرابع : أن يقدر أسواقه ، بحسب كفايته ، وفي مواضع حاجته .

والخامس : أن يميز خطط أهله ، وقبائل ساكنيه ، ولايجمع بين أضداد متنافرين ، ولا بين أجناس مختلفين .

والسادس : إن أراد الملك أن يستوطنه سكن فيه في أفسح أطرافه ، وأطاف به جميع خواصه ، ومن يكفيه من أمر أجناده ....، وجعل وسطه عوام أهله ..

والسابع: أن يحوطهم بسور إن تاخموا عدوا ، أو خافوا اغتيالا حتى لايدخل عليهم إلا من أرادوه ، ولايخرج عنهم إلا من عرفوه ، لأنه دارلساكنيه وحرز لمستوطنيه .

والثامن : أن ينقل إليه من أعلام أهل العلوم والصنائع مايحتاج أهله إليه ، حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن غيرهم) .

ويمكن إعادة صياغة هذه الشروط الثمانية كما يلي :

الأول : تيسير وصول المياه العذبة إلى السكان بالمدينة من خلال القنوات المنتشرة في داخل طرقات المدينة إذا كانت هذه المياه موجودة في أماكن بعيدة . فإذا لم تتوافر أنهار جارية فيمكن استكمال هذا النقص بإقامة الحياض أو السبل (جمع سبيل) التي توقف في سبيل الله ، دون أن يتكلف السكان نفقات في سبيل الحصول على الماء .

الثاني : تخطيط الشوارع بحيث يكون اتساعها متناسبا ووظائفها المختلفة وحجم السكان ، فلا تكون ضيقة حتى لايضار المار بها .

وحين نرجع إلى ماقاله الماوردي في كتابه الموسوم بالأحكام السلطانية نجده عند ذكر تمصير البصرة يقول :

(مصرت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ البصرة على عهد عمر بن الخطاب ، وجعلوها خططا لقبائل أهلها ، فجعلوا عرض شارعها الأعظم ـ وهو مربدها ـ ستين ذراعا ، وجعلوا عرض ماسواه من الشوارع عشرين ذراعا ، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ، وجعلوا أوسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيلهم وقبور موتاهم ، وتلاصقوا في المنازل .

الثالث : بناء المسجد الجامع في وسط المدينة .

الرابع : تنظيم الحياة التجارية في المدينة ممثلة في الأسواق ، مع مراعاة أن تكون هذه الأسواق متوافرة بمقدار الحاجة إليها كما ونوعا ، وكذلك أن تكون موزعة في مواضع الحاجة إليها .

الخامس : تقسيم المدينة إلى خطط أو أحياء سكنية وفقا لما هو قائم بين سكان كل حي من تجانس عرقي ، فيكون ذلك ضمانا لحياة اجتماعية مستقرة ، ودفعا لوقوع التنافر إذا كان سكان الحي الواحد من أعراق مختلفة .

ومثل هذا الشرط يتناسب وما كانت عليه المدن العظمى من اجتماع آلاف الساكنين الذين ينتسبون إلى قبائل شتى ، بل ومعهم من غير العرب عناصر عرقية أخرى .

السادس : إذا كانت المدينة عاصمة للدولة أو الإقليم فإن أفضل موضع لقيام دار الملك ومساكن الجند هي أفسح أطراف المدينة ، حتى تكون هذه الضاحية الملكية الحصينة بعيدة عن كتلة المدينة السكنية وأسواقها المتخصصة .

السابع : يجب إحاطة المدينة بسور ـ خاصة إذا كانت على مقربة من عدو ـ لمعرفة هوية المترددين والمغادرين .

أن ينقل إلى المصر المعرفة العلمية والعملية بقدر الحاجة إليها تحقيقا للاكتفاء الذاتي .

وخلاصة القول:إن عمارة المدن في الإسلام كانت مختلفة عن عمارة المدن في الدول غير الإسلامية . فالأولى كانت ذات أسس دينية وعلمية ، وليتنا نعود إلى هذه الأسس في بناء المدن المعاصرة ، مع تطوير أساليب العمارة بحيث نستفيد من تقنيات العصر ومن التطور في مواد البناء .

والله الهادي إلى سواء السبيل .